الصباح الإسلامية
AL-SABAH
www.alsabahpress.com Alsabah Media
No. 4483 | الثلاثاء | 2 رجب 1444 هـ | 24 يناير 2023 م | السنة الخامسة عشرة

الشريعة حرمتهما باعتبارهما متنفس بغض تخرجان من صدر فقير إلى الرحمة

الغيبة والنميمة.. ذريعتان لتكدير الصفو وبث الفرقة بين قلوب المسلمين

لا يجوز لمسلم أن يتشفى بالتشنيع على مسلم ولو ذكره بما فيه فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد ويشتهي لهم العافية. أما التلهّي بسرد الفضائح وكشفَ المستور، وإبداء العورات، فليس مسلك المسلم الحق. ومن ثم حرم الإسلام الغيبة، إذ هي متنفس حقد مكظوم وصدر فقير إلى الرحمة والصفاء. عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال ذكرك أخاك بما يكره قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟. قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ومن آداب الإسلام التي شرعها لحفظ المودات، واتقاء الفرقة تحريم النميمة لأنها ذريعة إلى تكدير الصفو وتغيير القلوب وقد كان النبي يتقى أن يُبلغ عن أصحابه ما يسوؤه قال: «لا يُبلغن أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

وعلى من سمع شيئا من ذلك ألا يوسع الخرق على الراقع فرب كلمة شر تموت مكانها لو تركت حيث قيلت! ورب كلمة شر سعرت الحروب إن اتسع نقلها ونفخ فيها فأصبحت شرارة تنتقل بالويلات والخطوب.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة نمام» وفي رواية «قَتَّاتٌ». قال العلماء: هما بمعنى واحد. وقيل: النمام الذي يكون مع جماعة يتحدثون فينقل عنهم والقتات الذي يتسمع عليهم من حيث لا يشعرون ثم ينمّ.

وروي في الحديث: «إن النميمة والحقد في النار لا يجتمعان في قلب مُسلم» ومن لوازم الحقد سوء الظن وتتبع العورات واللمز وتعيير الناس بعاهاتهم أو خصائصهم البدنية والنفسية وقد كره الإسلام ذلك كله كراهية شديدة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَن عَلِمَ من أخيه سيئة فستراها ستر الله عليه يوم القيامة». وقال: «من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موؤدة». وكثيرا ما يكون متتبع العورات لفضحها أشر إجراما، وأبعد عن الله قلوبا من أصحاب السيئات المكتشفة فإن التربص بالجريمة لنشرها أقبح من وقوع الجريمة نفسها. وشتان بين شعورين شعور الغيرة على حرمات الله والرغبة في حمايتها وشعور البغضاء لعباد الله والرغبة في إذلالهم إن الشعور الأول قد يصل في صاحبه إلى القمة ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التشفي من الخلق وانتظار عثراتهم والشماتة في آلامهم وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره وربما تخلف حيث سبق آخرون.

ومن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوي الأثرة بالمرء فتجعله يتمنى الخسار لكل إنسان لا لشيء إلا لأنه هو لم يربح ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرة وأكرم عاطفة فينظر إلى الأمور من خلال الصالح العام لا من خلال شهواته الخاصة. وجمهور الحاقدين تغلي مراجل الحقد في أنفسهم لأنهم ينظرون إلى الدنيا فيجدون ما يتمنونه لأنفسهم قد فاتهم وامتلأت به أكف أخرى وهذه هي الطامة التي لا تدعُ لهم قرارا وقديما رأى إبليس أن الحظوة التي يشتهيها قد ذهبت إلى آدم فآلى ألا يترك أحدا يستمتع بها بعدما حرمها، «قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين». هذا الغليان الشيطاني هو الذي يضطرم في نفس الحاقدين ويفسد قلوبهم وقد أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المكر وأن يسلكوا في الحياة نهجا أرقى وأهدأ.

عن أنس بن مالك قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يطلعُ الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال النبي مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي مثل مقالته أيضا فطلع ذلك الرجل على مثال حاله الأولى.

فلما قام النبي قام عبدالله بن عمر وتبع الرجل فقال: إني لا حيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت! قال: نعم. قال أنس: فكان عبدالله يُحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعارتقلب في فراشه ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا. فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله قلت: يا عبدالله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك. فأنظر ما عملك فأقتدي بك فلم أرك عملت كبير عمل! فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟ قال: ما هو إلا ما رأيت قال عبدالله فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك» وفي رواية: «ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي إلا أني لم أبت ضاغنا على مسلم».

«وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ»

جاءت هذه الآية بعد حَثّ المؤمنين على غض البصر حيث طالبت المؤمنات ألا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة، أو الهاتفة المثيرة، التي تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة! «ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها».

والزينة حلال للمرأة، تلبية لفطرتها. فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة. والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطرة واحد، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله، وتجليته للرجال.

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد – هو شريك الحياة – يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه. ويشترك معه في الاطلاع على بعضها، المحارم والمذكورون في الآية بعد، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع.

فأما ما ظهر من الزينة في الوجه واليدين، فيجوز كشفه. لأن كشف الوجه واليدين مباح لقوله (صلى الله عليه وسلم) لأسماء بنت أبي بكر: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه». «وليضربن بخمرهن على جيوبهن».

والجيب فتحة الصدر في الثوب. والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر. ليداري مفاتنهن، فلا يعرضها للعيون الجائعة، ولا حتى لنظرة الفجاءة، التي يتقي المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها، ولكنها قد تترك كمينا في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة!

إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء في هذا النوع من البلاء!

والمؤمنات اللواتي تلقين هذا النهي. وقلوبهن مشرقة بنور الله، لم يتلكأن في الطاعة، على الرغم من رغبتهن الفطرية في الظهور بالزينة والجمال. وقد كانت المرأة في الجاهلية – كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة! – تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء. وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقرطة أذنيها. فلما أمر الله النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، كن كما قالت عائشة رضي الله عنها: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول. لما أنزل الله: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» شققن مروطهن فاختمرن بها.. وعن صفية بنت شيبة قالت: «بينما نحن عند عائشة. قالت: فذكرن نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة رضي الله عنها إن لنساء قريش لفضلا. وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، وأشد تصديقا لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل. لما نزلت في سورة النور: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته. فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه. فأصبحن وراء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان».

لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامي، وطهر إحساسه بالجمال، فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب، بل الطابع الإنساني المهذب.. وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان، مهما يكن من التناسق والاكتمال. فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف، الذي يرفع الذوق الجمالي، ويجعله لائقا بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال.

عبدالله بن مسعود أول من جهر بالقرآن

كان منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملته للناس حكيماً، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطف وترفق، وكذلك الصبيان الصغار، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه اللطيف برسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت غلامًا يافعًا أرعى غنما لعقبة بن أبي مُعَيط فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر فقال: «يا غلام هل من لبن؟» قلت: نعم ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم ينز عليها فحل؟» فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبابكر، ثم قال للضرع: «اقلص»، فقلص قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك غليم معلم».

وهكذا كان مفتاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى قالها عن نفسه، «إني مؤتمن»، والثانية كانت من الصادق المصدوق حيث قال له: «إنك غليم معلم» ولقد كان لهاتين الكلمتين دور عظيم في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة –رضوان الله عليهم– ودخل عبدالله في ركب الإيمان، وهو يمخر بحار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحدًا من أولئك السابقين الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم. قال عنه ابن حجر: «أحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبي صلى الله عليه وسلم وكان صاحب نعليه».

وبالرغم من أن ابن مسعود كان حليفًا وليس له عشيرة تحميه، ومع أنه كان ضئيل الجسم، دقيق الساقين، فإن ذلك لم يحل دون ظهور شجاعته وقوة نفسه، وله مواقف رائعة في ذلك، منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على ملئهم وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلفة، فكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) رافعاً بها صوته (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا غرو أن هذا العمل الذي قام به عبدالله يعتبر تحديًا عمليًا لقريش، التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبدالله عليهم بعد هذه التجربة على الرغم مما أصابه من أذى.

واجب الأمة إعادة تأصيل المعارف المكتسبة من منطلق إسلامي صحيح

الاحتجاج بأن العلوم التجريبية – في ظل الحضارة المادية المعاصرة – تنطلق في معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وبأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمرد ذلك كله بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع إلى العقائد الفاسدة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة في وقت حقق فيه الإنسان قفزات هائلة في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون في كل أمر من أمور الحياة – بصفة عامة – وفي مجال العلوم والتقنية – بصفة خاصة – مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمي ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة في وجه أي تقدم علمي، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة.

وظل الحال كذلك حتى انتصرت حقائق العلم على خرافات الكنيسة فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولا ثم لقضية الإيمان بالتبعية، وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم فى إطار المادة وحدها، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، وحرموا أنفسهم من مجرد التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم تكتب من مفهوم مادي صرف، وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها منذ بدايات القرن العشرين، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة المادية والغلبة العسكرية، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق؛ لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية المعاصرة. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية في مختلف دول العالم الإسلامي المعاصر، لا يكاد يخرج في مجموعة عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحيانا مع نصوص الدين، وهنا تقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضا كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة كلها، أي إعادة كتابة العلوم وغيرها من المعارف المكتسبة من منطلق إسلامي صحيح، خاصة أن المعطيات الكلية للعلوم– بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر– أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب. وأن العلوم الكونية كانت ولاتزال النافذة الرئيسية التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية، وأن المنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات.